ثورة العالم الثالث

بقلم الدكتور أبو القاسم سعد الله

(خلال شهر ديسمبر الماضي نظمت جامعة ويسكنسن بمدينة اوكلير ندوة عن « ديناميكية الثورة » اشترك فيها عدد من الاساتذة الجامعيين وتحدث كل منهم عن ثورة من اثورات المعروفة كالثورة الاميركية والفرنسية والروسية . وقد شارك الكاتب بالكلمة التالية عن « ثورة العالم الثالث » ثم ترجمها الى العربية) .

حين افتتح الرئيس سوكارنو مؤتمر باندونغ عام ١٩٥٥ ، خاطب ضيوفه بالعبارات التالية : « ان قلبي يفيض عاطفة . ان هذا هو أول مؤتمر عالمي للشعوب الملونة في تاريخ الانسانية . ان الاشياء التي توحدنا اكثر من تلك التي تفرقنا بطريقة اصطناعية . اننا جميعا أعداء للاستعمار والعنصرية » .

فمؤتمر باندونغ ، الذي تمثلت فيه ارادة ٥٦ أمة افريسية (افريقية ـ اسيوية) ، كان حقا نقطة فاصلة في تاريخ العالم . لقد سجل بداية المرحلة الثانية من ثورة الامم الناهضة ، وخلق روحا جديدة أصبحت تعرف « بروح باندونغ » ، التي تعني قبل كل شيء اكتشاف شعوب افريسيا (افريقيا واسيا) لنفسها . ولعل ذلك هو الذي جعل عالما اميركيا يكتب بعد هذا المؤتمر مباشرة : «ان وحدة شعوب العالم الملونة حقيقة جديدة وتغير كبير . ورغم ان هذه الوحدة كانت قادمة منذ خمسين عاما ، فان هذا التغير قد حدث قبل ان يكون الغرب مستعدا لمجابهته » .

ولكن ما الاوطان التي تشهد ذلك التغير الكبير ؟ هناك عدة تعبيرات متداولة اليوم لوصفها . فبعضهم يسميها البلاد الناهضة او النامية . وبعضهم يدعوها الامم المتخلفة أو أرض الامال او الدول غير المنحازة . اما في السياسة العالمية فان عبارة الكتلة الافريسية قد اصبحت شائعة ، وذلك بالمقارنة الى الكتلتين الغربية والشرقية المنحازتين الى ايديولوجيتين متعارضتين . وحديثا اختلق الفرنسيون عبارة « لو تيير موند » او العالم الثالث . ورغم ان هذه العبارة قد أطلقت أصلا على المنطقة الافريسية ، فانها الان تشمل اميركا اللاتينية ايضا .

لقد كان ، وما يزال ، هناك غليان شديد في العالم الثالث . ورغم ان بعضهم يفضل أن يسمي هذا الغليان حركة احتجاج أو الرغبة في التعصر او غير ذلك ، فان هناك من يسميه الثورة المضادة للاستعمار . وحديثا اطلق مؤلف اميركي على كتابه عنوان « ثورة اللون » مشيرا بذلك الى ثورة العالم الثالث . ونفس المؤلف قد تحدث عن « التشكيل الثلاثي لقوى العالم » ممثلا في كتلات الغرب والشرق وافريسيا .

خلال القرن الماضي كتب الثائر الايطالي دانيال مابين : « اننا لا نسأل النمسا ان تكون انسانية وليبرالية في ايطاليا . اننا نطلب منها أن تخرج من بلادنا . فليس يهمنا من انسانيتها وليبراليتها أي شيء . اننا نود أن نكون أسيادا في بلادنا » (١) . والواقع ان شعوب العالم الثالث لا تريد اكثر من ذلك من أسيادها المستعمرين . ومهما كان الاسم الذي يطلق اليوم على ثورة افريسيا ، فانها لا تعدو ان تكون ثورة قومية محضة .

وشعوب العالم الثالث تريد حكم نفسها بنفسها مهما كانت النتائج . فقد قال نكروما رئيس غانا السابق : « اننا نفضل حكم انفسنا مع الخطر ، على العبودية مع الهدوء » . اما سيكوتوري رئيس غينيا فقد قال : « اننا نفضل أن نكون أحرارا فقراء على ان نكون عبيدا اغنياء » . ان هذين الزعيمين لم يكونا سوى صدى للروح الجديدة المنبعثة في العالم الثالث ، هذه الروح التي نسميها هنا الثورة القومية .

ولكن اذا كان باندونغ يمثل المرحلة الثانية لثورة العالم الثالث ، فان المرحلة الاولى لها قد بدأت منذ أمد طويل ، ان اصولها ترجع الى أول اتصال بين المستعمِر والمستعمَر . ذلك ان الاستعمار قد كان نوعا جديدا من العبودية . فهو يستغل ، ويهيمن ، ويضطهد ، ويمنع الانسان من تطوره الطبيعي . ان الاستعمار قد اعتبر شعوب افريسيا أهليين (انديجينا) من غير حقوق سياسية ، او شخصية ثقافية ، او رموز قومية . لقد اعتبرها مخلوقات ناقصة . فرد فعل شعوب افريسيا ضد هذه المعاملة غير الانسانية كان أول اتجاه ثوري تحريري .

(١) كانت النمسا عندئذ تحتل جزءا كبيرا من ايطاليا وتعارض الوحدة الايطالية .

والحق ان القوات الاستعمارية لم تحضر معها لهذه الشعوب الاستغلال والاضطهاد فقط ، بل أحضرت معها أيضا بعض الافكار القيمة التي ساعدت في النهاية ، بصفة غير مباشرة ، على مضاعفة رد الفعل القومي . من ذلك التنظيم الاداري ، والفلسفة الليبرالية ، والتربية الغربية ، وفكرة القومية نفسها . وقد دخل عدد من الطلاب الاهليين ، بطريقة أو بأخرى ، بعض مدارس المستعمرين وتعلموا منها تلك الافكار . وشيئا فشيئا شكل هؤلاء الطلاب النخبة الطليعية ، واصبحوا فيما بعد أبطال الثورة التحريرية .

وفي نفس الوقت كانت هناك بعض التطورات العالمية التي تسببت في دفع ثورة العالم الثالث القومية الى الامام . ذلك ان القوات الاستعمارية قد تحاربت فيما بينها بمرارة خلال الحربين العالميتين . وكثيرا ما امتدت هذه الحروب الى المستعمرات نفسها . وقد اثرت هذه الحروب بقوه على شعوب العالم الثالث . بل ان منها من اجبر على الحرب الى جانب « الوطن الام » ضد قوة أخرى . وبالاضافة الى ذلك فقد كانت هناك الدعايات التي تنادي الاهليين بالثورة ضد القوة الحاكمة .

ولعل أهم فكرة أثرت على شعوب العالم الثالث خلال الحرب العالمية الاولى هي فكرة « تقرير المصير » التي بشر بها كل من لينين وويلسون لاسباب مختلفة طبعا . أما خلال الحرب العالمية الثانية ، فان المبادىء الديمقراطية التي تضمنها ميثاق الاطلنطي قد جذبت اليها النخبه من شعوب العالم الثالث . والى جانب ذلك ، فقد ظهرت في أوروبا جماعات تنادي بوقف الامبريالية ، وتمت في العالم فكرة التسامح العالمي ، كما بدا ضعف القوى الاستعمارية بعد الحرب ، وبرزت الفكرة الشيوعية . وقد أدى ذلك كله الى ظهور القوميات المحلية في افريسيا .

ولا شك ان هناك اختلافات وتشابهات بين شعوب العالم الثالث . فهي من ناحية لم تخضع لنوع واحد من الاستعمار ، ذلك ان بعضها كان تحت نظام المحميات ، وبعضها كان يخضع لنظام المستعمرات ، وبعضها كان يسمى مناطق وصاية ، وبعضها كان جزءا لا يتجزأ من « الوطن الام » للقوى الحاكمة . ومن ناحية أخرى فهي تختلف في اللغة والدين والعنصر . فبعد باندونغ مباشرة كتب عالم اميركي عن أهل افريسيا : « ان هذه الشعوب تختلف أساسا عن بعضها . فمنها من لا يزال يعبد الاجداد والحيوانات ، ومن يؤمن بتعدد الازواج والزوجات . ومنها من يعيش في مجتمع بلا طبقية على الاطلاق ، ومن يخضع لقوانين طبقية صارمة . ومنها من يملك نظاما زراعيا جامدا ، ومن أصبح متقدما صناعيا » .

ومع ذلك ، فان شعوب العالم الثالث متشابهة في عدة نواح مما جعلنا نتحدث عن ثورتها كحركة واحدة . انها جميعا ضد الاستعمار . وهي جميعا ترغب في أن تكون سيدة في اوطانها . وكلها تريد تحقيق الاستقلال القومي . وهي تشترك في التركيز على الحرية القومية اكثر من الحرية الفردية . وهي تود ان تشيد قومية حديثة ، ونظاما قوميا للتربية والتعليم ، واقتصادا اشتراكيا ، وحكومة قوية تقوم على نظام الحزب الواحد . وشعوب العالم الثالث تتفق ايضا على احياء تراثها القومي ، وعلى التعاون الاقليمي ، وعلى سياسة عدم الانحياز . ومعنى ذلك ان ثورتها ليست حركة سلبية معادية للاستعمار فقط ، ولكنها ايضا حركة بنائية تستهدف انشاء مجتمع حديث في الداخل وتثبيت ذاتيتها على المستوى العالمي .

ومن الخصائص التي تشترك فيها شعوب العالم الثالث جميعا خصومتها للاستعمار الجديد . ان الغريب غير المتمرس على طبائع هذه الشعوب سيدهش من بعض المفردات الشائعة في لغة العالم الثالث . فهو يسمع اللعنات تصب على الاستعمار والامبريالية والاستعمار الجديد من جميع المتكلمين تقريبا . ففي عام ١٩٦١ انعقد مؤتمر الشعوب الافريقية الذي انهى اعماله بلائحة اعتبرت الاستعمار الجديد « اعظم خطر يهدد البلدان الافريقية » .

وبناء على ذلك المؤتمر ، فان مظاهر الاستعمار الجديد هي :

١ ــ الحكومات العميلة .
٢ ــ خلق التكتلات بين الدول .
٣ ــ بلقانية (تقسيم) الدول .
٤ ــ تسلط القوى الاستعمارية على الاقتصاد المحلي .
٥ ــ التوقف المباشر على نقد القوى الاستعمارية .
٦ ــ القواعد العسكرية .

اما عملاء الاستعمار فهم في رأي المؤتمر :

١ ــ السفارات والبعثات الاستعمارية .
٢ ــ المسمون بالمساعدين الفنيين التابعين للامم المتحدة .
٣ ــ الموظفون العسكريون بالقواعد العسكرية .
٤ ــ كل النشاطات الاستعمارية والامبريالية تحت ستار الدين ، او التسلح الاخلاقي ، او الثقافي ، او اتحاد التجار ، او منظمات الشباب ، او الهيئات الانسانية .
٥ ــ الدعاية المسمومة الموجهة من البلاد الاستعمارية والامبريالية .

ومن الواضح ان ثورة العالم الثالث قد تأثرت بالافكار الاوروبية . فرواد هذه الثورة قد قرأوا كلا من المبادىء الليبرالية والماركسية . كما قرأوا مبادىء « الثورة المظفرة » عام ١٦٨٨ (الثورة الانكليزية) ، و « الثورة البورجوازية » عام ١٧٨٩ (الثورة الفرنسية) ، و « الثورة البروليتارية » عام ١٩١٧ (الثورة الروسية) .

واذا كان وقع الليبرالية على ثورة العالم الثالث واضحا من خلال النظام الاجتماعي والثقافي لهؤلاء الرواد ، فان وقع الماركسية عليها واضح من خلال تطبيق هؤلاء الرواد للاشتراكية التي تقوم بتخطيطها النخبة في كل بلاد . وهذه الاشتراكية الانسانية ذات الاقتصاد المختلط ،

ضرورية لاسباب اقتصادية واخلاقية . فهي تقوم على مشاعر العداوة للحكم الاجنبي ، وعلى فكره المساواه الاجتماعيه ، وعلى الرغبه في سرعه التطور .

ولكن ثوره العالم الثالث لها مظاهر كثيرة . فقد أخذت في بعض الاحيان شكل صراع دموي طويل مثل حرب الجزائر التي استغرقت حوالي ثماني سنوات . واخذت احيانا شكل الانقلابات والانقلابات المعاكسة مثل ما وقع في اميركا اللاتينية ، والشرق الاوسط ، وافريقيا . وأخذت أحيانا أخرى شكل خصام سياسي حاد أدى في النهاية الى نقل السلطة الى أيدي الاهليين مثل ما وقع بالنسبة الى شعوب الكومنولث البريطاني والمجموعه الفرنسيه .

وعلى هذا الاساس ، فان ثورة العالم الثالث تشترك مع الثورات الاخرى ، ولا سيما الثورتين الفرنسيه والروسيه ، في استعمال العنف ، والاعتماد على الجماهيرية ، واللجوء الى حرب الشعارات . كما تشترك معها في الوعود الحلوة والحقائق المرة . ولكن ثورة العالم الثالث ، بالقياس الى الثورات الاخرى ، تبدو متعدده الجوانب . كما انها ما زالت في مرحلة التكوين .

على اننا اذا اعتبرنا فترة ما قبل باندونغ تمثل المرحلة الاولى لثورة العالم الثالث ، وفترة ما بعد باندونغ تمثل مرحلتها الثانية ، فان عام ١٩٦٠ الذي سماه بعضهم عام افريقيا كان بداية لمرحلتها الثالثة . وتقوم المرحلة الثالثة على تدعيم المكتسبات الثورية وتثبيت الاستقلال القومي الذي جاء نتيجة لصعوبات وتضحيات لا تحصى . وهكذا نجد اليوم ان طريقة محو الاستعمار تقترب من نهايتها في العالم الثالث .

كتب مؤلف اميركي حديثا : « ان اسيا وافريقيا تمثلان الاتجاه اللاعقلي لكل من الشرق والغرب » . ولكن الحقيقة هي ان ثورة افريسيا غير منحازة . انها ليست ثورة شيوعية ولا رأسمالية . انها حركة قومية تناضل من أجل تحرير شعوب العالم الثالث من البؤس الاقتصادي والتبعية السياسية .

في عام ١٩٥٥ كتب الالماني فيليكس سوماري : « اننا نعيش في الفصل الخامس من الثورة الفرنسية » . ويبدو ان سوماري كان يشير بذلك الى الحرب الباردة . فالى أي مدى أثرت الثورة الفرنسية على الثورة الروسية؟ والى أي مدى أثرت هاتان الثورتان على ثورة العالم الثالث ؟ سواء أكان هناك تأثير مباشر أو لم يكن ، فان ثورة العالم الثالث ليست سوى فصل من الثورة العالمية الكبرى التي تستهدف تحقيق حياة أفضل لكامل الانسانية .

ابو القاسم سعد الله

استاذ في التاريخ

مقدمات

— ١ —

رسالة بدون رد
لعاشق حزين
يذوب الليل مكبا فوقها
يعصرها ...
يدوس عزة الحروف دون حد

* * *

ذات مساء
ألقى بها ساعي البريد
أمام قصر مد في الغيوم جيد
ثم مضى
مدندنا لحنا .. سعيد

* * *

ظلت هناك مهمله
لم تلتفت سيدة القصر لها
لكن خادم القصر المنيف
بنظرة واحدة
ألقى بها في سلة التراب
ولم يزل مرسلها الحزين —
عبر تخوم الريح والمطر —
ينتظر البريد .

— ٢ —

قصيدة لم تكتمل
مهملة .. منسية .. طي كتاب
شاعرها داست عليه — فجأة — سيارة الحريق
ومات في الطريق
بدون أن يقول أين

— ٣ —

حوار
يبدأ بين واحد وواحده
تعارفا ذات مساء حالم في بار
وحين مد يده ليهتك الازار
انفجرت قنبلة .. وانهدم الجدار

الخرطوم

سيد أحمد الحردلو